المحاضرة الأولى:

اللغة و المجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمتاز الظواهر الاجتماعية ــ وهى التى يتألف من دراستها موضوع علم الاجتماع La Sociologie ــ بصفات كثيرة من أهمها الخواص الثلاث الآتية :

١ ــ أنها تتمثل فى نظم عامة يشترك فى اتباعها أفراد مجتمع ما ، ويتخذونها أساساً لتنظيم حياتهم الجمعية ، وتنسيق العلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض والتى تربطهم بغيرهم .

٢ ــ أنها ليست من صنع الأفراد ، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث من تلقاء نفسها عن حياة الجماعات ، ومقتضيات العمران . وهذا هو ما يعنيه علماء الاجتماع إذ يقررون أنها من « نتاج العقل الجمعى » .

٣ ــ أن خروج الفرد على أى نظام منها يلقى من المجتمع مقاومة تأخذه بعقاب مادى أو أدبى ، أو تلغى عمله وتعتبره كأنه لم يكن ، أو تحول بينه وبين ما يبتغيه من وراء مخالفته وتجعل أعماله ضربا من ضروب العبث العقيم ، أو تسلط عليه أكثر من جزاء واحد من هذه الجزاءات[1] .

---

(١) يرجع الفضل فى إبراز هذه الخواص وتوضيحها إلى العلامة دوركايم فى كتابه : « قواعد المنهج الاجتماعى » Durkheim; Les Règles de la Méthode Sociologique .

وهذه الخواص الثلاث تتوافر فى اللغة على أكمل ما يكون :

فاللغة فى كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد فى ابتاعه ، ويتخذونه أساساً للتعبير عما يجول بخواطرهم ، وفى تفاهمهم بعضهم مع بعض .

واللغة ليست من الأمور التى يصنعها فرد معين أو أفراد معينون ، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة الجمعية ، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر ، وتبادل للأفكار . وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه ، فيتلقاه عنه تلقياً بطريق التعلم والمحاكاة ، كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى ، ويصب أصواته فى قوالبه ، ويحتذيه فى تفاهمه وتعبيره .

واللغة من الأمور التى يرى كل فرد نفسه مضطراً إلى الخضوع لما ترسمه . وكل خروج على نظامها ، ولو كان عن خطأ أو جهل ، يلقى من المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح ، وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء . فإذا أخطأ فرد فى نطق كلمة ما ، أو استخدامها فى غير مدلولها ، أو خرج فى تركيب عبارته عن القواعد التى ترسمها لغته ، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه ، ورموه بالغفلة والجهل ، وقد يحول ذلك دون فهمهم لما يريد التعبير عنه . وليس هذا مقصوراً على الخطأ الذى يسع الناطق إصلاحه ، بل إن الخطأ الذى لا يمكنه إصلاحه ، لنشأته مثلا عن خلل طبيعي فى أعضاء النطق ، قد يثير هو نفسه لدى السامعين بعض ما يثيره غيره من الأخطاء ، ويجر على صاحبه بعض آلام ومتاعب فى تعبيره وتفاهمه(١) . وإذا حاول فرد أن يخرج كل الخروج على النظام اللغوى ، بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها ، فإن عمله هذا يصبح ضرباً من ضروب العبث العقيم ، إذ لن يجد من يفهم حديثه ، ولن يستطيع إلى نشر مخترعه هذا سبيلاً .

---

(١) من طريف ما يروى فى هذا الصدد أن بعض خطباء العرب المصابين باللثغة كانوا يرهقون أنفسهم عسراً من أمرهم فى إعداد خطبهم حتى لا يبدو فيها أثر للثغتهم ، فكانوا يحرصون على ألا تشتمل أية كلمة منها على الصوت الذى لا يقوى لسانهم على النطق به من مخرجه الصحيح .

يروى ذلك عن واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال الذى كان لا يحسن نطق الراء ، فكان يتجنبه فى مهارة وحذق فى جميع الكلمات التى تشتمل عليه (انظر البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٨) .

فاللغة إذن ظاهرة اجتماعية . وهى بوصفها هذا تؤلف موضوعاً من موضوعات علم الاجتماع[1] . وسندرسها فى هذا الكتاب على منهج هذا العلم ومن وجهة نظره وأغراضه .

ودراسة أية ظاهرة اجتماعية على منهج علم الاجتماع ومن وجهة نظره وأغراضه تقتضى على الأخص توضيح حقيقتين هامتين :

إحداهما : القوانين التى تخضع لها هذه الظاهرة فى حياتها وتطورها وما يعتورها من شئون .

والأخرى : مبلغ تأثرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية الأخرى .

وهاتان الحقيقتان هما اللتان سنعنى بتوضيحهما فى هذا الكتاب . وسنوضحهما على ضوء دراستنا لثلاث موضوعات يتمثل فيها أهم ما يعتور اللغة فى حياتها ، وهى : تطور اللغة ؛ وصراع اللغات بعضها مع بعض ؛ وتفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .